الخطاب القرآني ومبدأ الوسطية في الثقافة والأخلاق والقيم الإسلامية

The Qur'anic discourse and the principle of moderation in Islamic culture, morals and values

أ.د.عبد القادر سلاّمي

جامعة تلمسان-الجزائر

skaderaminaanes@gmail.com

د. أمينة بلهاشمي

المركز الجامعي بالنعامة-الجزائر

walhassiya@gmail.com

ملخص البحث

لمّا كان الإسلام ، وما يزالُ و سيبقى ،ما شاء الله له أن يبقى، موطن الوسطية والاعتدال في نشر ثقافة السّلم ونبذ التطرّف بكافّة أشكاله وصوره، فإنّ ورقتنا التالية ترمي إليه برصد بعض نماذجه في القرآن الكريم والثقافة الإسلامية و الشعر العربي الحديث بما يفي وقوفاً على سماحة ديننا الحنيف، و رفض كل أشكال الترهيب المتّبعة في نشر ثقافة العدوان دون ثقافة السّلم المنشود.

Abstract

Since Islam has been, is and will remain, as God willed for it to remain, the home of moderation and moderation in spreading a culture of peace and rejecting extremism in all its forms and manifestations, our next paper aims at it by examining some of its models in the Noble Qur'an, Islamic culture and modern Arabic poetry, in a way that suffices to stand on the His Eminence, our true religion, and rejection of all forms of intimidation used in spreading the culture of aggression without the desired culture of peace.

أولاً- مفاهيم أولية

١-مفهوم الخطاب:

الخطاب لغةً : من خَطَبَ: يقال خاطَبَهُ، يُخَاطِبُهُ خِطاباً، والخَطْبُ والمُخاطبة والتخاطبُ: المراجعة في الكلام، ومنه: والخُطْبَةُ من ذلك، وهي: الكلام المَخْطُوبُ به والخِطِبَةُ، لكن الخُطبَة تختصُّ بالموعِظة، والخِطْبَة بطلب المرأة،قال تعالى:﴿**لا جُنَاحَ عليكم فيما عَرَضْتُمْ به من خِطْبَة النّساءِ**﴾(البقرة:٢٣٥)، والخَطْب الأمر يقعُ، وإنَّما يُسَمَّى بذلك لما يقعُ فيه من التَّخاطُب والمُراجَعَة .قال تعالى: ﴿ **فَما خَطْبُكُم أيّها المُرسلُون** ﴾(الحجر:٥٧) وفَصْلُ الخِطاب:أي خِطابٌ لا يكونُ فيه اخْتِصارٌ مُخلٌّ ولا إسْهَابٌ مُمِلٌّ.(3)

٢-مفهوم الثقافة:

ولمّا كانت الثقافة "تشمل العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها"(4)؛ فإنها كذلك"العلم الذي يبحث كليات الدين في مختلف شؤون الحياة.فإذا وصفت بدين معين اختصت بكليات ذلك الدين". فالثقافة الإسلامية:" علم كليات الإسلام في نظم الحياة كلها بترابطها".(5)

الثقافة مفهوم واسع النطاق في دلالته. فهي في عرف الأنثروبولوجيون، وبصفة خاصة "إدوارد تيلور" الكلّ المركّب الذي يشتمل على المعرفة، والعقيدة، والفن، والأخلاق، والقانون، والتقاليد، وأيّ نوع آخر من القدرات، والعادات التي اكتسبها المرء بوصفه عضواً في المجتمع".(6)

وهي بذلك "تشمل العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيه ، غير مقتصرة في ذلك على دلالتها التي تحظى بالشهرة والذيوع بوصفها الاستنارة العقلية وسعة الاطلاع، وتذوّق الفنون على النّحو الذي ترعاه به وزارة الثقافة ومؤسّساتها،... بل تتجاوزها إلى التعبير عن القضايا العامّة.(7)

فقد"استقرّت الدراسات الإنسانية المعاصرة على اعتبار مفردة" ثقافة" مصطلحاً يدلُّ على منظومة من الخبرات التي حصّلتها جماعة من الجماعات البشرية ، تتجلّى فيها طريقة هذه الجماعة في الحياة ، وتتحدّد أنساقها القيمية والمعتقدية والمعرفية والجمالية، والتي تعبّر عن تظرتها للوجود الاجتماعي والطبيعية. وحدّدت الموضوعات التي يشملها المصطلح بأنّها: القيَم والمعارف والتّصوّرات والعادات والأعراف والتنظيمات، والتعبيرات الفنية، وأساليب العمل والإنتاج وأدواته وعلاقاته، وأيّ قدرات أخرى يكتسبها الفرد بوصفه عضواً في المجتمع".[8]

٣-مفهوم الأخلاق:

الأخلاق جمع خُلُق. والخُلق: التقدير وقيل الخلق هو الدين والطبع والسجية وجاءت الخلق بمعنى المروءة ويقال خالص المؤمن وخالق الفاجر. ويقال رجل متخلق أي حسن الخلقة، ويقال رجل له خلق حسن وخليقة: وهي خلق عليه من طبيعة، وتخلق بكذا وخليق بكذا كأنما خلق وطبع عليه ويقال امرأة خليقة :أي ذات خلق وجسم.[9]

أما من الجانب الاصطلاحي، فإنّ حقيقة الخلق هو أنه "وصف لصورة الإنسان الباطنية وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة. وقيل الخلق عبارة عن هيئة في النفس عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا."[10]

وهناك من ذهب إلى أن الأخلاق من الخلق وهو "حال النفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا رؤية ولا اختيار والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد وقد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمد كالشجاعة والعلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك. أما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والشر فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم."[11]

٤ – مفهوم القيم:

القيَم جمع قيمة ، وهي ثمن الشيء بالتقويم[12] تقول: تقاوموه فيما بينهم وإذا انْقاد الشيء واستمرّت طريقته، فقد استقام ، وقيّم الأمر مُقيمُه، وأمرٌ قيّم ومستقيمٌ. وفي الحديث الشريف:**(أتاني مَلَك فقال:أنتَ قُثَمٌ وخُلُقك قيّمٌ)**[13] أي مستقيم، وقال تعالى : ﴿**فيها كتُبٌ قَيّمةٌ** ﴾(البينة:١٣-١٤)، أي مستقيمة تبيّن الحقّ من الباطل على استواء. والقيمة بالكسر واحدة القيم، وما له قيمة، واستقام اعتدل، وقوّمته : عدّلتُه، فهو قويم ومستقيم .والقِوام (بالكسر): نظام الأمر وعمادُه وملاكه.و إقامة الشيء: توفيةُ حقّه ، وتقويم الشيء : تثقيفه ، قال تعالى ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾(التين:٤)، ذلك إشارة إلى ما خُصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدّالّة على استيلائه على كل ما في هذا العالم[16]

ومن ذلك يتّضح أن القيم مأخوذة من مادة(قوم) وقد استعملت لمعانٍ عدة، منها:[17]

نظام الأمر وعماده.

- توفية الشيء.
- الاستقامة والاعتدال.
- قيمة الشيء وثمنه.

أمّا من حيث الاصطلاح، فالقيم هي: تقدير الفرد أو الجماعة لصفات خاصة في الأشياء ، أو في الأحياء، تجعلها محمودة أو مذمومة ، أو نجعلها موضع رغبة فيها ، أو عنها.[18]وهي بذلك معايير أخلاقية ، يصدقها عدد من البشر في ضوء معتقداتهم وثقافاتهم ، تحتوي على فكر ثابت، وآخر متطوّر مع تطوّر الحياة والمجتمع ، توجّه سلوكياتهم ، وتضبط تصرفاتهم إيجابياً فق أولويات يحددُونها ،وإنْ غلب في اصطلاح القيم قيم الشيء على خصائصه التي تميّزه وتعلي قدره. فالقيم إذاً ليست الأشياء في حدّ ذاتها ، وإنّما هي المعاني التي تحملها وتربطعا بالأشياء، أو الأفراد أو المفاهيم.

والحقيقة أنّ القيم فضائل دينية وخُلقية واجتماعية تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني، وفي مقدّمتها القيم الإسلامية السّمحاء الشّاملة لكلّ أفراد البشرية ، على اختلاف الأزمنة ، وتنوّع الأمكنة ، كونها تتّصف بالإطلاق والثّبات.([19])

٥- مفهوم الثقافة الإسلامية:

لئن لم يوجد حتى الآن تعريف محدد متفق عليه لمصطلح الثقافة الإسلامية، وإنما هي اجتهادات من بعض العلماء والمفكرين ، من حيث تعددت التعريفات لهذا المصطلح تبعاً لتعدد اتجاهات هؤلاء العلماء والمفكرين إلاّ أنّه يمكن الاطمئنان إلى التعريف السابق، بوصفه جامعاً مانعاً ، من جهات عدّة:[(20)] فقولنا : (علم) يخرج به المفهوم العام للثقافة الذي يعني النشاط الأدبي والفني .

وقولنا (كليات الإسلام) : يعني أصوله ومقوماته في جميع نظمه فيخرج به فروع الإسلام في نظمه المتعددة لأن هذا من شأن العلوم المتخصصة كالعقيدة في النظام العقدي والعبادات، والمعاملات في الفقه ، وهكذا بقية النظم الأخرى .

وقولنا(في نظم الحياة):شمول واستقصاء لسائر نظم الحياة البشرية وهذه النظم هي :العقيدة ، والعبادة ،والدعوة والحسبة ، والأخلاق ،و الاجتماع ، والسياسة ،و الاقتصاد ،و العلم والمعرفة .

وقولنا (كلها) : تخرج به العلوم الشرعية المتخصصة بنظام واحد أو بعض تلك النظم ، حيث تدرس أصول هذا النظام وفروعه كعلم الفقه مثلاً ، أما علم الثقافة فيبحث في نظم الإسلام كلها جميعاً دون تعمق في فروعه.

وقولنا (بترابطها) : تخرج به البحوث الإسلامية الموسوعية التي تجمع العلوم الإسلامية في مؤلف واحد لكن في استقلالها التخصصي وانفصالها ، أما علم الثقافة فيبحث ارتباط هذه النظم بعضها ببعضٍ وأثر كل منها على غيره .

على أنّ الهُوِيَّة هي "جملة المعايير التي تمكن من تعريف فرد ما وهي شعور داخلي هذا الشعور بالهوية يتعدد إلى الشعور بالوحدة و الانسجام و الانتماء و بالقيمة و بالاستقالة و بالثقة . إنها مجموعة المميزات منظمة حول الإرادة في التواجد[(21)]، ومحددات الهوية تكمن في ارتباطها باليات اكتسابها و دور الأنا و الذات يعد بمثابة مبدأ التنظيم الذي بوساطته يحافظ الفرد على بقائه شخصيةً متماسكةً مع ماهيته و استمرارية في تجربة الذاتية و واقعيته مع الآخر لذلك يعدّ الأنا من محددات الهُوية ، هذا بالإضافية إلى الآخر الذي من خلاله نشعر بهُويتنا .

ونجد أنفسنا اليوم بين ثلاث عوالم الأول هو العالم القديم بأصولياته الدينية و تصوراته اللاهوتية أما الثاني فهو العالم الحديث بفلسفاته العلمانية و الثالث و هو العالم الأخر في التشكل أي عالم العولمة هذه العوالم الثلاث تتجاذب الوعي بالهوية و تؤلّف ما يمكن تسميته ثالوث التقليد و الحداثة و ما بعد الحداثة بصيغة أدّت ثالوث الأصولية و العالمية و العولمية و في المجال العربي الأخرى تسميته ثالوث الأسلمة و الأنسنة و العولمة، و قد

كان الارتباط وثيقا بين الهوية و الثقافة لما كانت اللغة مظهر من مظاهر الثقافة و منه توصف اللغة بأنها مرجعية من مرجعيات الهُوية .

وفي نهاية هذا المفهوم للثقافة بصفة عامة والثقافة الإسلامية والهوّية بصفة خاصة أشير إلى أن المبحث القادم سيبين أهمية البيان في ترسيخ الثقافة الإسلامية بشكل أكبر وأوضح وستزيد القارئ معرفة بأهميته وحاجة المسلم عموماً والشّباب المسلم إليه على وجه الخصوص.

ثانياً- الثقافة الإسلامية والفكر الدعوي

لئن دلّ المشترك الثقافي على الاعتقادات التي يتقاسمها أفراد البيئة اللغوية والمعلومات التاريخية،والأفكار والأعراف المشاعة بينهم،فإنّه يظلّ المُعين على فهم مضمون ما رواه أبوسليمان الخطّابي(ت٣٨٨هـ) فقال:" حدّثني عبد العزيز بن محمّد المسكني قال: حدّثني إسحاق بن إبراهيم قال حدّثني سويدنا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرّحمن قال: حدّثني طلحة اليامي قال: حدّثني عبد الرّحمن بن عَوْسَجَةٌ عن البَرَاء بن عَازِب:أنّ أعرَابِيّاً جاء النّبيَّ ﷺ، فقال:علّمْني عملاً يُدخلُني الجنّة، فقال: اعْتِقِ النَّسْمَة وفُكَّ الرَّقبَةَ.قال: أَوَلَيْسَا واحداً ؟ قال:لا، عِتْقُ النَّسْمَةِ أن تنفَرِدَ بعتْقِها وفَكُّ الرَّقَبَة أن تُعينَ في ثَمَنِها. فتأمّل كيف رتَّبَ الكلامَيْن واقتضى من كلّ واحدٍ منهما أخصَّ البَيَانَيْن" [22].

ومن المتأخرين نذكر الشَّاطبي (ت ٧٩٠هـ) على سبيل المثال الذي يرى" أنَّه لا بدّ في فهم الشّريعة من اتّباع معهود الأمّيين ، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فإن كان العرب في لسانهم عُرْف مستمرّ فلا يصحّ العدول عنه في فهم الشّريعة ، وإن لم يكن ثمَّة عُرْف فلا يصحّ أن يجري فهمها على ما لا تعرفه.وهذا جارٍ في المعاني والألفاظ والأساليب، مثال ذلك أنّ معهود العرب أنْ لا ترى الألفاظ تعبُّداً عند محافظتها على المعاني ، وإنْ كانت تُراعيها أيضاً. فليس أحدَ الأمْرَين عندها بملتزمٍ ، بل قد تبني على أحدهما مرّةً ، وعلى الآخر أخرى ، ولا يكون ذلك قادحاً في صحّة كلامها واستقامته.والدّليل على ذلك أشياء: أحدهما: خروجها في كثير من كلامها عن أحكام القوانين المطّردة ، والضَوابط المستمرّة؛ وجريانها في كثير من منثُورها على طريق منظُومها، وإنْ لم يكن بها حاجةٌ؛ وتركها مَا هو أوْلى في مَرَاميها. ولا يعدُّ ذلك قليلاً في كلامها ولا ضعيفاً؛ بل هو كثيرٌ قويٌّ، وإنْ كان غيرُه أكثرَ منه. والثّاني: أنّ من شأنها الاستغناءُ ببعض اللفظ عمّا يُرادفها أو يُقاربُها ولا يُعدُّ ذلك اختلافاً ولا اضطراباً، إذا كان المعنى المقصود على استقامةٍ، والكافي من ذلك نُزولُ القرآن على سبعةٍ أحرُفٍ"[23]

وهنا يجب الإقرار بأنّ الاكتفاء بالتحليل اللغوي المحض المقتصر على المعنى المعجمي والوظيفي على المستوى الصوتي والصّرفي والنّحوي قد يؤدّي إلى قُصُورٍ في فهم الخطاب فهماً كاملاً، ففي قوله تعالى: ﴿**وقال اللهُ:يَا عيسى بنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاس اتَّخِذُون وأُمّيَ إلهيْنِ من دون الله**﴾[المائدة:١١٦]، وفي قوله: ﴿**وَهَل نُجَازِي إلاَّ الكَفُورَ**﴾[سبأ:١٧]، نجد أنّ الخطاب خارجٌ عن الدّلالة اللغوية الحرفية، وذلك أنَّ الاستفهام*في الآية الأولى للتقرير: وهو حمل المخاطب على ما يعلمُ ثُبُوته أو نفيه ليُثَبّتَهُ على فعله فيكون جزاءً،أو يتحقّق أنّه فعله عن قصدٍ؛[26] وفي الثّانية للنّفي حتى جاز أن يجيء بعدها " إلاَّ" قصْداً للإيجاب، والتقدير: مَا نجازي إلاّ الكفور[27] وليس في مقدرة التحليل اللغوي على المستويات المذكورة أن يعطينا هذا الفهم إذا تغاضينا عن السياق الثقافي الذي يدلُّنا على أنّ الاستفهام الحقيقي لا يصدرُ عن الله تعالى، لأنّ الاستفهام طلبُ الفهم ، وهو يقتضي الجهل،

والله عزّ وجلّ مُنَزَّهٌ عن ذلك،الأمر الذي يدعو إلى التماس معنى آخر للكلام.وما جعلنا نجزم بأنّ الاستفهام في الآية الأولى للتقرير ،وفي الآية الثانية للنّفي هو علمنا بحال المخاطبين[28].

والجدير بالذكر هنا أنّ المعجم العربي أدرك دور السياق الثقافي المفضي إلى الفكر الدعوي في صوغ الدلالة وهو ما نقف عليه في تعليقٍ لابن سيده (ت ٤٥٨هـ) على قول أبي عليّ الفارسي ت٣٧٧هـ) أورد في (باب المَعْرِفة والعِلْم) من مخصّصه جاء فيه "وممّا هو ضَرْبٌ من العِلْم قَولُهم:اليَقينُ ولا ينْعَكِسُ فَنَقُول: كلُّ يَقينٍ عِلْمٌ وليس كلُّ عِلمٍ يَقينٌ ، وذلك أنّ اليَقينَ عِلْمٌ يَحْصُلُ بعدَ استدْلالٍ ونَظَرٍ لِغُمُوضِ المَعْلُومِ المنظور فيه أو لإشْكَالِ ذلك على النَّاظِرِ .فليس كلُّ عِلْمٍ يقيناً ؛ لأنَّ من المعلومات ما يُعْلَمُ من غير أنْ يعترَضَ فيه توقُّفٌ أو مَوْضِعُ نَظَرٍ" [29] فدلّ بذلك على أنّ العلم:"عبارةٌ عن حصول معنًى في النَّفْس حصولاً لا يتطرَّقُ إليه احتمال كونه على وجهٍ غير الوجه الذي يحصل عليه"[30]، فقال علي ابن سيده معلّلاً و مستنتجاً ومؤيّداً لهذا المذهب في التفسير:" ولذلك قالَتِ الأوَائِلُ: إنَّ اليَقينَ هو العِلْمُ الثّاني ، أي أنّه لا يُعْلَمُ ولا يُدْرَكُ عن بَديهَةٍ ، ولكنَّهُ بعدَ بَذْلِ الوُسْعِ في التعَقُّبِ وإنْعَامِ النَّظَرِ والتَّصَفُّحِ. يعني مَا يُعْلَمُ بِبَدَائِهِ العُقُولِ والحوَاسّ كالقَضَايَا المُنقسِمَة إلى أربعة أقسامٍ ، وهي: المَعْقُولُ كقولنا: العَقْلُ مُدْرِكٌ لِمَا أُعْمِلَ فيه ، والمَحْسُوسُ كقولنا: الشَّمْسُ طالعةٌ أوْ غَرِبَةٌ ، والمَشْهُورُ كقولنا: إنَّ شُكْرَ المُنْعِمِ حَسَنٌ وكُفْرُهُ قَبيحٌ إنَّ بَرَّ الأبَوَيْنِ لازِمٌ، والمَقْبُولُ: وهي القَضِيَّةُ التي تُؤْخَذُ عن واحِدٍ ثِقَةٍ مُرْتَضًى أو جماعةٍ ثِقَاتٍ مُرْتَضِينِ، فهذا كلُّه من المقدِّمَات التي حصلَت في النَّفْسِ من غير بحْثٍ ولا قيَاسٍ". [31] واليقين، في نظر ابن سيده،لا يتأتّى إلاّ بالإدراك الذي هو عِلْمٌ يقوم على التأمُّل والتصَفُّح والمقابَلَةِ بين مَعَاقِدِ الرَّأْيِ ومَقَاصِدِهِ[32].

ويبقى السياق الثقافي هو الكفيل بفهم مثل هذه ونحو ذلك ممّا هو مرتبط بالحياة الاجتماعية أو له صلة بثقافة المجتمع الدينية أو السياسية أو الاجتماعية بوجه عامّ [33]

ثالثًا- الغاية من الأخلاق وضرورتها في المجتمع

يبحث علم الأخلاق عن معنى الخير والشر ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس مع بعضهم البعض ونشر الغاية التي ينبغي أن يقصدوا إليها وأعمالهم وينير السبيل لعمل ما ينبغي[34]، ولقد حدّد الإسلام غاية الأخلاق التي ينبغي أن يتم العمل الأخلاقي في ظلها، بأن يريد الإنسان من عمله وجه الله وأن يعمل لأن هذا العمل أراده الله منه لا أكثر ولا أقل[35]، قال الله تعالى: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار**﴾(الرعد:٢٢)، وقوله أيضا: ﴿**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله أولئك هو المفلحون**﴾(الروم:٣٨)، ويقول تعالى في آية أخرى ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا**﴾(الانسان:٨-٩)

فبالإضافة إلى جعل الله غاية للأخلاق وابتغاء وجهه فإنه قد ربط بين هذه الغاية وبين خيرية الأخلاق والجزاء في الآخرة. ولا شك أنّ الأخلاق هي الدعامة الأولى في بناء كلّ مجتمع سليم وحفظ كيان الأمم من كل خلل وفساد ومن أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء الحث على الأخلاق في الحياة الدنيا والفوز بالنعيم الأخروي[39]، لهذا فإنّ الأخلاق الإسلامية لها أهمية كبيرة في حياة الإنسان فتحقق لهم التقدم الحضاري والاجتماعي في جميع مجالاته لأن التحلي بالأخلاق الفاضلة كالعدالة، والمساواة، والتعاون، والأمانة والإخلاص، والصدق، والعفة، والاحترام، والنزاهة، والإخاء، والمحبة، والمودة وما إلى ذلك من الأخلاق التي حثّ عليها القرآن قال الله تعالى:﴿ **وتعاونوا**

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(المائدة:٢)، وقوله تعالى: ﴿**وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا**﴾(الاسراء:٨٠)، والابتعاد عن الرذائل التي تفسد نظام المجتمع كالسرقة في قوله تعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾(المائدة:٣٨)، وكذلك الغش: هذه الرذيلة التي إذا توغلت داخل المجتمع انعدم الأمان والثقة والصدق والطمأنينة حيث يقول عز وجل: ﴿**ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾(المطففين:١-٣)، يؤدي حتما إلى تكوين مجتمع فاضل يسير في اتجاه سليم معين وهو اتجاه التقدم في بناء الأفراد ثمّ بناء المجتمع ثمّ بناء الحضارة على أسس أخلاقية. من خلال هذا كله تتحقق السعادة في مختلف مستوياتها في الحياة الدنيا بالعيش في اطمئنان وأمان والحياة الأخرى بالفوز بالجنة ونعيمها قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ أحبكم إليّ وأقربكم منّي منزلة يوم القيامة أحسنكم خلقا" (44).

رابعاً- هندسة القيم وأهميتها التربوية المسجدية

هندسة القيم عبارة عن منظومة تتعلّق بالتخطيط للقيم ، وترتيبها وتنظيمها وإدارتها، وتنزيلها إلى أرض الواقع، ومعالجتها وتقييمها ، أي إعطائها ما لها من قيمة فعلية. وقد دخلت مختلف القطاعات، كالإدارة ، والاقتصاد. والمال، وعلم الاجتماع ، والتربية و غيرها(45) وإعداد القيمة في القراءة أو ما يدرج بعد تكوين الكتابة في هندسة اللغة (لفظ /معنى) لتكون صورة أبستمولوجيا لابد من فهم محيط المعرفة القبلية المكونة للمتعلم في حاجاته ومدركاته وطرائق توظيف الاكتساب التركيبي (النحوي/الصرفي/الصوتي/السلوكي/ الاجرائي/الوظيفي..) ليكون لأسس التعليم منهجية تأسيس وقواعد بناء فكري ونفسي وجسدي يدرك مهارات توظيف القيمة ورسم حدود الوظيفة الناشئة عبر خطوات الفهم المدرك لما يأتي:

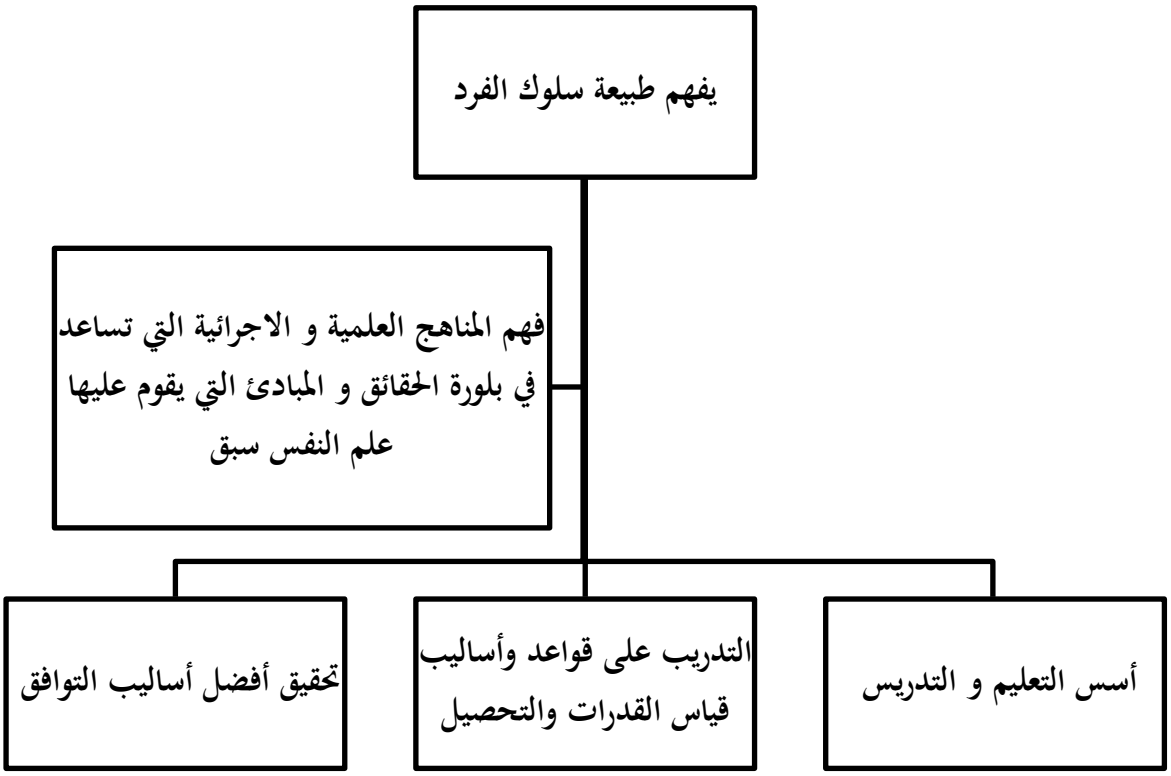

إذ لا يوجد هندسة تسبق الهدف فالتعامل المنطقي نحو فهم منطلق العلمي والحقيقة الملائمة لتحقيق التوافق بين الأساليب والخواص الطبيعية المناسبة أثناء ممارستها على قواعد القدرات ومسار التحصيل الإيجابي الفعال والمتفاعل.

وهو ما استوحاه الشاعر "محمد العيد آل خليفة"، من حناياه، فقال من قصيدة "استوح شعرك"، بعد مطلع ملهم:(46)

اسْتَوْحِ شعرَكَ منْ حنايا الأضلُع واستجِل في القَسمات حُسنَ المطلعِ
وصُغ التحيَّة نَضِرَةً رفَّافةً كالوَرْدِ، وارْفعْها لهذا المجْمَع

****

أذَوِي العَمائِم سايِرُوا قُرآنَكُمْ وتَتَبَعُوا هَدْيَ الرّسُـــــــــولِ الأشْفَـعِ
أذَوِي العَمائِم رَاجعُوا تاريخَكُمْ مِنْ مُنْذُ عَهْد (الدّايِ) حـتّى تُبَّـــــعِ
أذَوِي العَمائِم علِّمُوا وتعهَّدُوا بالوَعْظِ والذّكْرى ذواتِ البُرْقُـــــــــعِ
آتُوا النّساءَ نَصيبَهُنَّ من الهُدى يَخْرُجْنَ نَشْئاً كالرّمَاحِ الشُّـــــــــزَّعِ
وابنُوا المَدارسَ نَضِرَةً مُزْدانَةً تَحْكي المَغَارِسَ في الرَّبيعِ المُونـــــــــعِ
وابنُو المساجدَ حُرّةٌ لَيْسَتْ إلى مُتَحَكِّمٍ تُعْـــــــــزَى ولا مُتَبَدِّعِ

فالمسجد لدى "محمد العيد" يرمز إلى حرية المعتقد بعيداً عن أهواء السياسة وأصحاب المحدثات الدينية، فهو بيت الله الذي لا يشرك به ولا يعبد فيه سواه.

و بما أن المسجد هو الفسحة التي تجمع الناس على الخير وتنهيهم على الشر، فهو المكان الذي يجعل من الدين بابا للخير والعفو والعدل والتسامح، فأبدا ما كان الدين بابا للشر، وقد تجلى هذا في صورة ضمنية في قول الشاعر "أحمد شوقي" الذي يقول:(47)

لاَتَجْعَلُوا الدِّينَ بَابَا لشَّرّ بَيْنَكُم وَلاَ مَحَلَّ مُباهـــــــــاة وإذْلالِ
ما الدِّينُ إلا تُراث الناسِ قبلكُم كلّ امرئٍ لأبيهِ تابـــــــــعٌ تآلي
ليسَ الغلوُّ أميناً في مشُورتِه مناهِج الرُّشدِ قد تخْفى على الغالي
لاتطلبُوا حقَّكم بَغياً ولا صَلفاً ما أبعَدَ الحقَّ عن باغٍ و مُحتَال

ومثلما كان المسجد بيتا للخير، كان مكانا يعلم زائريه التعايش السلمي، ما ولّد في أنفس بعض الشعراء تلك الإنسانية التي دعت إلى السلم، أمثال الشاعر "محمود طه" الذي راح يقارن الروح الإنسانية الإسلامية وحروبها والروح غير الإسلامية وطغيانها في الحروب فقال في قصيدته " عام جديد": (48)

هذه حربُ حياةٍ أو حمامِ وصراعُ الخيرِ والشرِ العُقامِ
خاضها الاسلام فرداً، وهدى بيراعٍ، وتحدى بحسامِ
لم تُتَحْ يوماً لجبار طغى أو لباغٍ فاتك السيف عُرام
لم تطقها حجراً أو خشبا ويُطاقُ اليومُ أصنام الأنام
وعجيب صنعهم في زمنٍ أبصر الأعمى به والمتعامى
آدميون قزامى انتحلوا منطق الآلهة الشم العظام؟

فعبرت هذه الأبيات عن استياء الشاعر من الظلم المستبد من قبل الطغاة الذين يحركون الحرب العالمية الثانية، وذلك لأن الإسلام نشر في وسط أبنائه العدل والإنصاف وغرسه فيهم، فالمسلم كلما سجد سجدة أو استمع إلى خطبة في المسجد إلا وصادفته تلك اللفظة " العدل" لذا نجد " أحمد مطر" يقول من قصيدة "هات العدل":(49)

إدْعُ إلى دينِكَ بالحُسنى

وَدَعِ الباقي للديَّان

أمّا الحُكْمُ .. فأمرٌ ثانْ

أمرٌ بالعَدْلِ تُعادِلُهُ

لا بالعِمّةِ والقُفطانْ

فالمسجد مدرسة تلقن مُورديه مبادئ الحياة ومبادئ الوسطية المثلى،فلا تشدّد فيها ولا تطرف.

خاتمة وتوصية

١-جاء الإسلام بأخلاق واقعية راعى الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترف بالضعف البشري وبالدوافع البشرية وبالحاجات البشرية، فلم يوجب الإسلام على من يريد اعتناقه أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته كما يحكي الإنجيل: " إنّ الغنيّ لا يدخل ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سمّ الخياط" [50] ، بل جاء القرآن بأخلاق واقعية في مقدور الإنسان القيام بها والتمسك بها كالعدل والعفو والصبر والمغفرة للمسيء على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها لا فريضة يلزم بها يقول الله عزّ وجل:﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين**﴾(الشورى:٤٠)، ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها أقرب للتفاوت الفطري والعلمي بين الناس فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان والالتزام بما أمر الله من أوامر وانتهاء عما نهى عنه من نواه، ومما يكمل هذا المعنى أنّ الإسلامية لم تفترض من أهل التقوى أن يكونوا براء من كلّ عيب معصومين من كل ذنب كأنهم ملائكة أولو أجنحة بل قدّرت أنّ الإنسان مكوّن من طين وروح فإذا كانت الروح تعلو به تارة فإنّ الطين تهبط به طورا فالمتقون هم الذين يتوبون ويرجعون إلى الله.[52] كما وصفهم في قوله تعالى: ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾(آل عمران:١٣٥)، فالأخلاق الإسلامية باستطاعة الفرد أنّ يقوم بها دون عناء ولا مشقة لأن الدين الإسلامي دين يسر، مصدقا لقوله تعالى: ﴿ **ادفَعْ بالتي أحسنُ فإذا الذي بينتَكَ وبينه عداوَةٌ كأنّه وليٌّ حميمٌ**﴾(فصلت:٣٤)، وبما يحقّق أهمية الأخلاق في تحقيق كمال الفرد والمجتمع.

٢-أشار البحث إلى جليات الفكر الوسطي في الإسلام وخلُص إلى أنّ الأخلاق والثقافة الإسلامية كان لهما الفضل أوفر لنشر الفكر الوسطي بين أفراد الأمة الإسلامية، ما يجعل هذه الأخيرة تتعامل مع غيرها وفق منهج يدعو للتوافق بين الآراء وتقبلها، دون مضاربة أو مخالفة، بل يجعلها لا هي معارضة ولا هي موافقة لأمور الحياة بل إنها أمّة تقبل الحل الوسط في كلّ الأمور. هذا الغرس الذي نما في أبناء المسجد، جعل بعض الشعراء العرب يدعون من خلال شعرهم للالتزام بهذا الفكر الوسطي، متّخذين الدين وأسس معاملاته حججاً على وسطية رأيهم، وطيب إنسانيتهم.

الهوامش

3 –ينظر:ابن فارس، معجم مقاييس اللغة،تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٧٩م ،١٩٨/٢، مادة (خطب) وسميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن مجمع البيان الحديث ، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة بيروت، لبنان،ط٢، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م، ص ٢٨٩.

4 –أنيس وآخرون، دار الفكر، بيروت، دت دت،٩٨/١ مادة(خلق).

5 –عبد الرحمن الزنيدي،مدخل إلى علم الثقافة الإسلامية ، مجلة علمية تابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الثاني، ١٤٠١٠هـ، ص٨٩.

6 – عزّ الدين إسماعيل، مقدمات في النقد الثقافي، مجلة محاور، العدد(٠١)، يونيه، ٢٠٠٤ م، ص٢٥–٢٦.

7 – ينظر: أنيس وآخرون، المعجم الوسيط،٩٨/١ مادة(خلق)،و صلاح قنصوة، تمارين في النقد الثقافي، ط١، دار ميريت، القاهرة،٢٠٠٧م، ص١٣.

8 – عبد الحميد حوّاس، المادي في الثقافة الشعبية (رؤية عربية)، مجلة الثقافة الشعبية،يصدرها أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات، العدد ٩ ، ص١٢.

9 – ابن منظور، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٩٧٧م ،٨٦/١١ مادة خلق.
وينظر:الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة فن الطباعة، مصر، ٢٣٦/٣ مادة خلق).

10 – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٥٣/٣.

11 – ماجد فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٨م، ص ١١.

12 – ابن منظور، لسان العرب،، ١٢/ ٣٥٧،مادة (قوم).

13– ينظر: ابن الأثير، أبو السعادات ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد ومحمود محمد، المكتبة العلمية، بيروت ،١٩٧٩م، ٤/ ٢٧،(باب القاف مع الثاء).

16 – ينظر: الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٩٩٧م، ص٤٦٦–٤٦٧،مادة (قوم) و سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، ص٧٢٥.

17– سعيد بن راشد الصوافي، التأسيس القرآني لهندسة القيم ،كتاب مؤتمر الهندسة القيمية للمناهج والبرامج باستانبول، تركيا، حزيران ٢٠١٨م،المركزالدولي للقيم وتطوير برامج التعليم، عمان ، الأردن، ط١،١٤٣٩هـ–٢٠١٨م ص٩٦.

18 – ينظر: ناصر الدين الأسد ، القيم بين الخصوصية والعمومية، كتاب المؤتمر الثقافي العربي السابع(الثقافة والقيم)،جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، أكتوبر ٢٠٠١م، دار الجيل، بيروت، ط/١، ٢٠٠٢م، ص٣١.

19– ينظر: المرجع نفسه، ص٩٧–٩٨.

20 علي بن حسن القرني، من مفاهيم ثقافتنا الإسلامية ، الرياض. المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٥، ص ١٢–١٣.

21 –علي حرب،حديث النهايات ، فتوحات العولمة و مأزق الهوية، بيروت، ٢٠٠٠ ص٣٨.

22 – الخطّابي، أبو سليمان بن محمد ، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُمّاني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم،دار المعارف بمصر ،ط٢،١٣٨٧هـ-١٩٦٧م ص ٣٣-٣٤.

23 – الشاطبي، أبو إسحاق ا إبراهيم بن ، الموافقات، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، دار الفتوى، ط٣ مقابلة عن الطبعة التي شرحها عبد الله درّاز، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م ص٣٩١-٣٩٢.

* وهو ما سمّاه ابن فارس(ت٣٩٥هـ) استخباراً من باب الترادف وهوعنده:" طلبث خُبْر ما ليس عند المُسْتَخْبِر، وهو الاستفهام.وذكر ناسٌ أنّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرْق. قالوا: وذلك أنّ أوْلى الحالَيْن الاستخبارُ؛ لأنّك تستخْبرُ فتُجابُ بشيء، فرُبَّما فَهِمْتَه ورُبَّما لم تَفْهَمْه، فإذا سألْتَ ثانيةً فأنْتَ مُسْتَفْهِمٌ، تقول:أَفْهِمْني ما قُلْتَه لِي.قالوا: والدَّليلُ على ذلك أنّ البَاري جلَّ ثناؤُه يُوصَفُ بالخُبْر ولا يُوصَفُ بالفَهْم".ابن فارس، أبو الحسين أحمد،الصاحبي في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها،تحقيق عمر فاروق الطبّاع،مكتبة المعارف،ط١،بيروت، لبنان،١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، ص ١٨٦.

26 – المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م،ص٣٢ والهروي،رصف المباني في شُروح المعاني،ص ٤٧-٤٨ وابن قتيبة،أبو محمد بن مسلم ،تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر،دار الكتب العلمية،بيروت، ط٣ ،١٤٠١ هـ -١٩٨١م، ص ٢٧٩، ٢٩٥و ابن لجزري، الكشف عن وجوه القراءات السّبع وعللها وحججها، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط٤ ،١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ،١/ ٤٢٣-٤٢٤ .

27 – المرادي،الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص ٣٤٢وابن الحزري، الكشف عن وجوه القراءات السّبع ،٢/٢٠٦-٢٠٧وينظر: ابن قتيبة ، أبو محمد بن مسلم،تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر ،عن دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ،ص ٣٥٦.

28 – محمد محمد يونس،وصف اللغة العربية دلالياً، في ضوء الدلالة المركزية-دراسة حول المعنى وظلال المعنى- لمحمد محمد يونس علي،ط١،منشورات جامعة الفاتح،طرابلس، ليبيا،١٩٩٣م، ص ١٣٨-١٣٩.

29 – ابن سيده، أبو الحسن علي،،المخصص، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ١٣١٧هـ-١٣٢١هـ ٢٩/٣

30 –الآمدي، سيف الدين،المُبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق وتقديم حسن محمود الشّافعي مكتبة وهبة،ط٢، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ،ص ١١٩-١٢٠.

31 –ابن سيده، المخصص، ٢٩/٣.

32 – المرجع نفسه،٣٢٩/٣.

33 – محمد محمد يونس ،وصف اللغة العربية دلالياً ، ص ١٣٨..

34– عفيف عبد الفتاح طبارة ،روح الدين الإسلامي ، عرض وتحليل لأصول الإسلام وآدابه وأحكامه تحت ضوء العلم والفلسفة، ط٣٤،دار العلم للملايين،٢٠٠٦م، ص ١٩٨ .

35 – مقداد يلجن ،الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، الإسلام (دراسة مقارنة) ، ط١، ١٩٧٣م،ص ٣٠٩ .

39- روح الدين الإسلامي ،ص ١٩٨- ١٩٩ .

44 -القرطبي ، أبو عبد الله محمد،الجامع لأحكام القرآن،، د ط، إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ٢٢٨/١٨.

45- ينظر: المرجع نفسه، ص٩٨.

46- محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، د.ط، الجزائر، د.ت ص ١٣٥ – ١٤٠.

47 – أحمد شوقي، الشوقيات ، الشوقيات ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،مصر،٢٠١٢م ، ص٧٣١.

48 – علي محمود طه، الديوان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ،مصلر، ٢٠١٢م ،ص٢٧٠.

49 – أحمد مطر، المجوعة الشعرية، المجوعة الشعرية ،دار الحرية، بيروت،ط١، ٢٠١١م، ،ص١٩٤.

50- يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ، ص ١٤٩ ،

52 -يوسف القرضاوي ،الخصائص العامة للإسلام ،ص ١٥٠ .